العدد العشرون
2003

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكمة تصدر سنويًا

1371 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2003 مسيحي

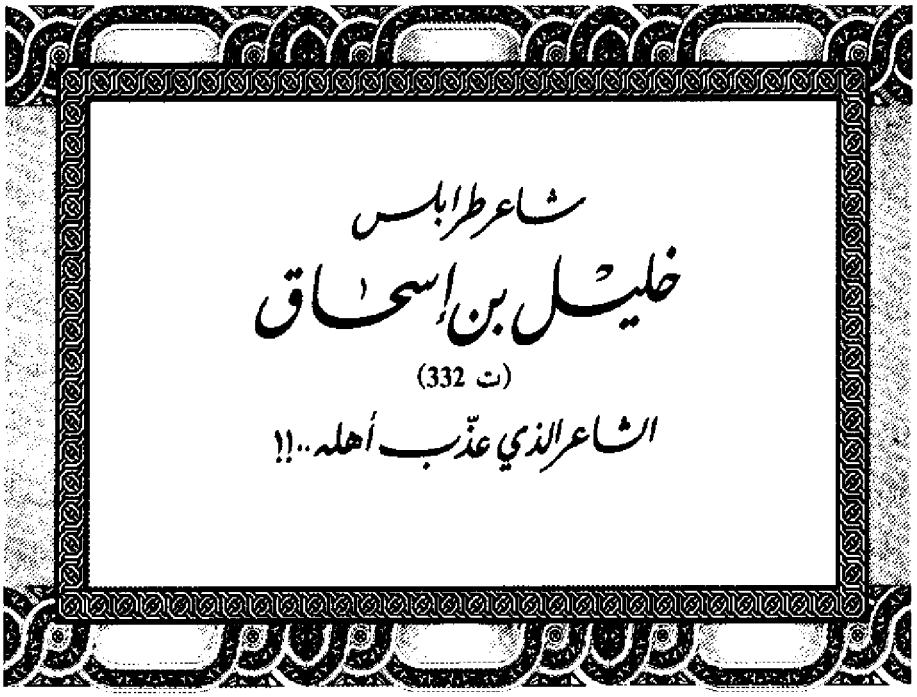

الأستاذ الدكتور: الصيد أبو ديب
قسم اللغة العربية - كلية الآداب

مدخل

بعد أن استقرت الدعوة الإسلامية خلال القرن الهجري الأول، شهد المغرب العربي، المطل على طول ساحل الشمال الإفريقي، والممتد من برقة حتى المغرب الأقصى، أحداثاً سياسية ودعوات دينية طوال القرون الثلاثة الهجرية التالية (الثاني والثالث والرابع)، تمخضت عنها قيام دويلات مستقلة، من هذه الدعوات: دعوة المعتزلة والخوارج، بخاصة الإباضية، ودعوات العلويين. ولقد ذاعت آراؤها وانتشرت أفكارها بين قبائل البربر بسرعة، ووجدت عندهم قبولاً واستحساناً، فأقبلوا على اعتناق مذاهبها الدينية وتأييد دولها السياسية: كالرستمية والأدارسة والأغالبة والفاطمية وغيرها من الدويلات

المستقلة الصغيرة، التي قامت على أرض المغرب العربي خلال تلك القرون المذكورة. وقد ساعد على ذلك عوامل متباينة وظروف عدة «فقد هاجرت إليه من المشرق جماعات كثيرة من أصحاب الآراء والمذاهب، ليأمنوا فيه على أنفسهم من بطش الخلافة العباسية، ولسعة أرض المغرب وبعده عن بغداد ـ مركز الخلافة ـ، وكثرة ما فيه من جبال وصحارى وواحات، لا يُهتدى للأجئين إليها»[1].

وكغيرها من أقطار المغرب العربي، عرفت ليبيا بعضاً من تلك الدول المستقلة كالأغالبة والفاطمية والصنهاجية، بل صارت أرضها واسطة عقد الدولة الفاطمية على وجه الخصوص، فقد كان الولاة الفاطميون «يتولون أمرها، ويشرفون على شؤونها»[2]. فضلاً عن أنه في عهد هذه الدولة هاجرت قبائل بني هلال وبني سليم من مصر إلى أرض المغرب عام 443هـ/ 1045م، وقد انفردت قبائل بني سليم بأرض ليبيا، فاستحكمت عروبة الألسنة في أنحائها «وصارت للعربية في هذه البلاد السيادة والهيمنة»[3]، وفي ظل هذه الدولة عاش شاعرنا (خليل بن إسحاق) أكثر من ثلاثين عاماً.

اسمه وكنيته وميلاده:

هو خليل بن إسحاق بن ورد التميمي، يكنى أبا العباس، لم تذكر لنا المصادر شيئاً عن أصله ونسبه وأسرته، ولم تحدد لنا تاريخ ميلاده، فأقدمها وهو كتاب (الحلة السيّراء) لأبي عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبّار (595 ـ 658هـ/ 1199 ـ 1260م)، اكتفى بالقول إن «مولده بطرابلس وهو من أبناء جندها»[4]. ونقل هذا التجاني في رحلته بقوله: إن

---

(1) قصة الأدب في ليبيا العربية، د .محمد عبد المنعم خفاجي، ط: 1، القاهرة: دار الطباعة المحمدية بالأزهر، بدون تاريخ، جـ 1، ص 75.

(2) المصدر نفسه، ص 77.

(3) نفسه، ص 79.

(4) الحلّة السيراء، ابن الأبّار، ط: 2، حققه وعلق حواشيه د .حسين مؤنس، مصر: دار المعارف، 1985، جـ 1، ص 302.

«خليل بن إسحاق هو من أبناء جندها وممن ولد بها»[5] مؤكداً «أن أصله من طرابلس»[6]، وعنهما أخذ الكثيرون بهذا القول.

لم يذكره الأستاذ علي مصطفى المصراتي ضمن (أعلام من طرابلس) ولم يشر إليه أيضاً في كتابه (لمحات أدبية عن ليبيا)، أما الشيخ الطاهر محمد الزاوي فقد جعله أحد (أعلام ليبيا)[7].

وكما سكتت المصادر التي ترجمت له عن تاريخ ميلاده، لم تقدم لنا أية معلومات عن فترة حياته المبكرة، باستثناء ما أشار إليه ابن الأبّار من أنه «كان في أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبيت في المساجد، إلى أن خالط أهل طرابلس، بلده سنة تسع وتسعين ومائتين[*]، فكان هو المتولي لعذابهم وأخذ أموالهم، وذلك في أول دولة عبيد الله المهدي»[8].

إن هذا النص المبكر، يساعدنا في الاقتراب من الحقبة التي عاش فيها (خليل بن إسحاق)، بل يسمح لنا بأن نذهب إلى أن ميلاده كان في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، أي في فترة حكم الدولة الأغلبية التي كان من جندها في طرابلس، والتي انتهت عام 296هـ، إلى جانب ذلك، فإننا نقف من خلال هذا النص ـ على شيء من نشأته الأولى ببلده ومسقط رأسه (طرابلس) ـ كما يذكر لنا شيئاً من تعليمه وثقافته في بداية حياته، حيث يشير إلى طلبه العلم الذي كان يتمثل ـ وقتئذ ـ في حفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم العربية والدينية. ويفصح هذا النص أيضاً عن ميله المبكر للأدب، ويخبرنا بمصاحبته للصوفيين في زمانه. الأمر الذي دفع التجاني إلى أن يقول عنه: إنه كان ذا «حظ

---

(5) رحلة التجاني، أبو محمد عبد الله بن محمد التجاني، لا.ط، قدم لها العلامة حسن حسني عبد الوهاب، ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب، 1981، ص 241.

(6) المصدر نفسه، ص 253.

(7) أعلام ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، ط: 1، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1961، ص 105.

(*) يذكر ابن عذارى في كتابه (البيان المغرب) أن ذلك كان في سنة 300هـ انظر: جـ 1، ص 168.

(8) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

جليل من العلم، وباعٍ متسع من الأدب»[9]، وقد نقل ابن غلبون هذا القول في تذكاره[10].

أما عن إشارة ابن الأبار إلى مبيته في المساجد، فلا اعتقد أنها دليل ورعه وتقواه، فما وصلنا من أخبار تتعلق بسيرة حياته تبعده عن ذلك، وربما تعني أحد احتمالين: إما ابتعاده عن أسرته للتفرغ في طلب العلم والأدب، والانقطاع للصوفية والمتصوفين، وإما لسوء حالته الاجتماعية؛ كأن يكون بلا بيت يضمه وهو في طرابلس، لكون أسرته تقيم خارجها في مكان ناءٍ، فلم يجد سوى المبيت في المساجد التي اتخذها مأوى له، وربما للاحتمالين معاً أو لغيرها من الاحتمالات التي يظهرها ما يكشف من أخباره مستقبلاً.

ولكن ما نراه بهذا الخصوص أن الاحتمال الثاني يقوى عندنا، فلعله يفسر لنا حقده على أهل بلده الذين عاش بينهم وهو يبيت في المساجد، وقد أظهره بعد انضمامه إلى دولة عبيد اللّه المهدي[*] في أول عهدها. فهو لكي يتخلص من مثل هذه الحياة البائسة، عمل على تقديم ولائه الكامل لهذه الدولة الجديدة التي انضم إليها وهو أحد جند الدولة الأغلبية في طرابلس، وأبدى استعداده للقيام بكل ما تطلبه منه، تقرباً من حكامها، ولو كان المطلوب استخراج الأموال من أهل بلده بالقوة وتعذيبهم.

ويبدو أن الذي ساعده في ذلك، ما كان يتمتع به من شخصية طاغية تميزت بالصلابة وقوة الشكيمة والعنف، إذ وصفت بالغلظة والفظاظة، وعرف عنها ميلها إلى سفك الدماء. ولا نستغرب منه ذلك، فقد اخبرتنا المصادر أنه كان من أبناء جند طرابلس في أواخر أيام الدولة الأغلبية، ولا شك في أن حياة

---

(9) رحلة التجاني، مرجع سابق، ص 241.

(10) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، ابن غلبون، ط: 2، عُني بتصحيحه والتعليق عليه الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس ـ ليبيا: الناشر مكتبة النور، 1967، ص 21.

الجندية التي عاشها في مطلع شبابه غرست فيه مثل هذه الصفات، التي دفعت التجاني إلى أن يصفه بأنه «كانت له صولة وهيبة»[11].

ويؤكد لنا هذا أن ممارسته للعنف مع أهل بلدته (طرابلس)، وتوليه تعذيبهم بنفسه، وأخذ أموالهم في سنة 299 أو 300هـ، لم تكن نزوة عابرة في تاريخ حياته، بل تكررت بعد ربع قرن مع أهل صقلية حين عيَّنه القاسم بن عبيد اللّه المهدي الملقب بـ «القائم بأمر الله» والياً على صقلية سنة 325هـ، فقد ذكرت المصادر أنه «عمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين، أهلكهم قتلاً وجوعاً حتى فروا إلى بلاد الروم وتنصّر كثير منهم»[12]. بل إن هذه المصادر سجلت عنه قولاً يشير إلى مدى قسوة قلبه وفظاظته، وعظيم ظلمه للناس، وحبه لسفك الدماء والقتل الجماعي، إذ قال يوماً، بعد أن عزله (القائم بأمر الله) عن صقلية ورجوعه إلى إفريقية عام 329هـ، «مفتخراً بظلمه في مجلس حضره جماعة من وجوه الناس، تكلموا فيه معه في أمور شتى، ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية، فقال: إني قتلت ألف ألف، يقوله المكثر، والمقلل يقول: مائة ألف في تلك السفرة، ثم قال: لا والله إلا أكثر، فقال له أبو عبد اللّه المؤدب: يا أبا العباس، لك في قتل نفس واحد ما يكفيك»[13]. ويورد ابن الأبّار رواية أخرى لقوله هذا، وهي أن «المكثر يقول إني قتلت وأهلكت ألف ألف، والمقلل يقول ستمائة ألف»[14].

ولا يعنينا عهنا اختلاف الروايات في ملفوظ قوله وعدد ما قتل، بقدر ما تعنينا تلك الانطباعات السيئة التي تركها لدى المؤرخين الذين عرضوا سيرته،

---

(11) رحلة التجاني، مرجع سابق، ص 241.

(*) قامت في عام 297هـ/ 909م.

(12) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي، ط: 3، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان ـ إ .ليڤي بروفنسال، ليبيا تونس: الدار العربية للكتاب، 1983، جـ 1 ص 215.

(13) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(14) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

وترجموا له، والتي تمثلت في وصفهم لنهايته المحزنة بأشنع الأوصاف، بل إن بعضهم أنهى حديثه عنه بشيء من التأسي والتشفي كابن الأبّار الذي قال عنه وهو يشير إلى قتله وصلبه: «وبعد وروده القيروان كان من قتله وصلبه ما كان، وما أفظع مصرع من احتقب الإثم والعدوان»[15].

علاقته بالعبيديين ومكانته في دولتهم:

يبدو أن شهرة (خليل بن إسحاق) لم تأت من كونه شاعراً من شعراء الدولة العبيدية أو أديباً من أدبائها، بل جاءت لأنه أحد رجالاتها في عهدها المبكر، فقد انضم إليها ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ في أول تأسيسها، وكان وقتئذ أحد أبناء جند طرابلس أيام حكم الأغالبة لها، الذي انتهى على يدي الدولة العبيدية.

وقصة ذلك أنه حين فرّ زيادة الله بن الأغلب المعروف بـ (زيادة الله الثالث) آخر أمراء الأغالبة، من بلدة (رقّادة)(*) عاصمة ولايته، (القيروان) التي كانت تبعد عنها بأربعة أميال، إلى طرابلس سنة 296هـ / 909م، حيث أقام بها أياماً ثم رجع إلى (رقّادة) وولّى عليها أخاه أبا العباس... كان أبو عبد اللّه (الداعي) الشيعي قد استولى على أكثر بلاد إفريقية. ولما تم له ذلك، انطلق إلى مدينة (سجلماسة)(**) التي كان بها (عبيد اللّه الشيعي) المعروف بالمهدي وابنه أبو القاسم، محبوسين فاستخرجهما من سجنهما، ودعا لعبيد اللّه المهدي بالخلافة سنة سبع وتسعين ومائتين (297هـ).

بعد قدوم عبيد اللّه المهدي وابنه إلى إفريقية، أخبره البعض بأن أبا

---

(15) المصدر نفسه، ص 304.

(*) رقّادة: مدينة بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة 263هـ، وقيل في تسميتها أكثر من سبب، من هذه الأسباب، أنها سميت (رقّادة) لكثرة القتلى فيها، انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، جـ 3، ص 55.

(**) سلجماسة: مدينة في جنوب المغرب، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، انظر: معجم البلدان، جـ 3، ص 127.

عبد اللّه (الداعي) الشيعي، قد نوى الغدر به، إذ تحدث مع وجوه قبائل كتامة في مسألة خلعه والعمل معهم على تحقيق ذلك، فأمر بقتله هو وأخيه العباس[16].

وبهذا بدأت دولة بني عبيد في إفريقية، ومنذ البداية سعت إلى جعل ليبيا منطقة موالية لدعوتها، كأمر حيوي في مخططها الكبير الذي هدفت فيه إلى الاستيلاء على مصر[17]. ومن ثم كان طبيعياً أن يستقطب العبيديون بعض الشخصيات فيها، تعمل على تمكين الدعوة العبيدية في طرابلس وما حولها، من الناحية العقائدية. وبالفعل نجحوا في ضم (محمد بن سلام بن سيار البرقي)، المتفقِّه على المذهب الشيعي، مذهب العبيديين، و(خليل بن إسحاق) المثقف الذي انحاز للدعوة العبيدية ضد أهل بلده طرابلس[18].

بدأت علاقة شاعرنا (خليل بن إسحاق) بالدولة العبيدية من خلال اتصاله بمؤسسها عبيد اللّه المهدي الشيعي، ورفقته الطويلة بابنه وولي عهده أبي القاسم. وقد قضى زهاء نصف عمره ـ على أقل تقدير ـ في خدمة هذه الدولة، حيث انطلقت تلك العلاقة حوالي عام 299 أو 300هـ، حين لمع اسمه وسطع نجمه بتعذيب أهل بلدته طرابلس وأخذ أموالهم، وانتهت بوفاته عام 332هـ.

إن ولاء (خليل بن إسحاق) للدولة العبيدية وإخلاصه لها، يكشفه لنا طول المدة التي خدم فيها تحت إمرة مؤسسها وابنه من بعده، وهي تزيد على ثلاثين سنة، كُلِّف خلالها بالعديد من الأعمال، بعضها أساءت إلى شخصيته ولطخت تاريخ حياته، ووصمت سيرته بالعار والشنار. فقد ذكر أن عبيد اللّه المهدي كان «يصرفه في الأعمال وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال»[19]، وعلى الرغم من عِظَم مثل هذه الأعمال التي كان يقوم بها ويستجيب لها دون

(16) البيان المغرب، مرجع سابق، ص 152، انظر أيضاً: التذكار، مرجع سابق، ص 20.

(17) تاريخ ليبيا، د .إحسان عباس، ط: 1، بيروت: مطابع دار صادر، الناشر: دار ليبيا للنشر والتوزيع، 1967، ص 79.

(18) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(19) البيان المغرب، مصدر سابق، ص 215.

اعتراض، فإن ذلك لم يحل دون إفصاح عبيد اللّه المهدي عن كرهه له وبغضه في أواخر أيامه، يقول ابن عذارى في هذا الشأن: «وقعت فيه أقوال، فكرهه عبيد اللّه وأبغضه، ولولا ابنه أبو القاسم لأهلكه»[20]. ويشير ابن الأبّار إلى ذلك أيضاً بقوله: «وقد كان المهدي عبيد اللّه سخط عليه في آخر دولته، فخاف، ولما توفي أمنّه (القائم) واستعمله فجار أشد الجور»[21].

من الواضح أن علاقة (خليل بن إسحاق) بالدولة العبيدية ظلت قائمة حتى وفاته، فقد أشارت المصادر إلى أنها كانت منذ بدايات حكم العبيديين لإفريقية، وأنه كان ذا حظوة كبيرة لدى القائم أبي القاسم. فهذا ابن الأبّار يخبرنا بأن خليل بن إسحاق «اتبع القائم أبا القاسم محمد بن عبيد اللّه المهدي في مسيره إلى محاربة أهل مصر، وهو إذ ذاك ولي عهد، فلحقه بالإسكندرية، وكان المتولي لجباية الأموال والنظر فيها»[22]. كان ذلك في مفتتح القرن الرابع الهجري، حين خرج أبو القاسم من (رقّادة) غازياً إلى مصر في جيش كبير، وفي ذي الحجة من سنة 301هـ وصل برقة، ثم واصل سيره إلى مصر، فدخل مدينة الإسكندرية، وبسط حكمه عليها في سنة 302هـ(*)، ومنها زحف على الفَيُّوم، وفي أثناء ذلك لحق خليل بن إسحاق بأبي القاسم الذي ولاّه جباية الأموال من أهلها[23].

ويبدو إن إقامة خليل بن إسحاق في مصر لم تدم طويلاً، فقد كانت عودته منها مع أبي القاسم في نفس السنة التي لحقه فيها، وهي 302هـ. وبعد وصوله إلى (المهدية) عاصمة الدولة العبيدية، كلف بالإشراف على جيوشها البرية والبحـــرية بإفريقية، يقول ابن الأبار: «وانصرف [خليل بن إسحاق] إلى المهدية، فقدم على فيل إفريقية، وكان أمر جندها إليه مع النظر في البحر»[24]،

---

(20) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(21) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

(22) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(*) يذكر ابن غلبون أن ذلك كان في سنة 306هـ، انظر: التذكار، مرجع سابق، ص 21.

(23) انظر: البيان المغرب مرجع سابق، ص 171 وتاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 81.

(24) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

وهذا الأخير يعني توليه شؤون الأسطول العبيدي (الفاطمي). ومن دلائل مكانته في الدولة العبيدية، وخطوته عند العبيديين الفاطميين، أنه سعى بالقاضي (عبد اللّه بن سلمان) الذي ولي قضاء طرابلس ووثائقها في بداية عهدهم، فعزلوه سنة 320هـ، وعينوا بدلاً منه (أحمد بن مجر) الذي كان يتولى مظالم القيروان[25].

ولايته على جزيرة صقلية:

تذكر لنا المصادر التي تناولت تاريخ دولة العبيديين، أنه يوم أن مات مؤسسها (عبيد اللّه المهدي) الشيعي في منتصف ربيع الأول من سنة 322هـ، كان ملكه يشمل إفريقية (جميع المغرب وطرابلس وبرقة)، ومصر التي سيّر لها ابنه أبا القاسم ففتحها سنة 302هـ ـ كما مرّ بنا ـ، وجزيرة صقلية. وكانت عاصمة هذا الملك (المهدية) التي انتقل إليها سنة 308هـ بعياله وأمواله بعد أن كمل قصره بها[26]. وبعد وفاته، بويع ولي عهده أبو القاسم بالحكم ولقب بالقائم بأمر الله[27]، على أثر ذلك، أذ يعين الولاة على ما كان في ملك أبيه من أمصار، ومنهم (خليل بن إسحاق) الذي عيّنه والياً على جزيرة صقلية سنة 325هـ/ 937م، أي بعد مضي ثلاث سنوات من مبايعة أبي القاسم، يقول ابن الأبّار، «وكان خروجه إليها في أول دولة (القائم)، سنة خمس وعشرين وثلاثمائة»[28].

يذكر العلامة حسن حسني عبد الوهاب أنه في هذه السنة «هبّ الصقليون لحمل السلاح ضد الجيش العبيدي، الذي أرسله القائم بن المهدي بقيادة

---

(25) البيان المغرب، مرجع سابق، ص 205، انظر أيضاً: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 101، تاريخ ليبيا الإسلامي، د .عبد اللطيف البرغوثي، ص 92، الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، محمد اليعلاوي، ص 236.

(26) البيان المغرب، مرجع سابق، ص 184.

(27) المصدر نفسه، ص 208.

(28) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

خليل بن إسحاق، ولم يستطع هذا القائد إخماد نيران الثورة(*) نوعاً ما إلا بعد عناء كبير»[29]. بسبب ذلك، أهلك (خليل بن إسحاق) أهل صقلية ـ كما سبقت الإشارة ـ جوعاً وقتلاً وهرب كثير منهم إلى بلاد الروم، واستحال ـ كما يقول د .شوقي ضيف «حاكماً لها باغياً طاغياً، أشد ما يكون البغي والطغيان... وجار فيها أشد ما يكون الجور والظلم»[30]. ومن ثم لم يكن غريباً أن يستدعيه (القائم) ويصرفه عن صقلية، ويستقدمه منها إلى (المهدية) بعد أن بقي بالجزيرة أربع سنوات، فقد كان قدومه إلى عاصمة الدولة العبيدية في سنة 329هـ.

أعمـالـه:

سبق أن ذكرنا شيئاً من أعماله وخدماته التي كان يقدمها إلى مؤسس الدولة العبيدية، وإلى ابنه ولي عهده من بعده، وهي أعمال وخدمات لم يستحسنها من ترجم له وعرض مسيرة حياته، ولا نخالفهم فيما وصفوه بسببها من صفات غير حميدة، لا تتفق وكونه شاعراً، في شعره رقة وعذوبة، كما سنتبين ذلك لاحقاً. ولكن مثل هذه الأعمال والخدمات لا تمنعنا من أن نشير إلى ما كتبه بعض المؤرخين عن أعمال له خيّرة، من ذلك ما يخبرنا به التجاني في رحلته المعروفة، في معرض حديثه عن المساجد في طرابلس، حيث ذكر أنه كان هناك «.... بين القصبة وهذه المدرسة المتقدمة [المدرسة المستنصرية]، جامع طرابلس الأعظم الذي بناه بنو عبيد، وهو جامع متسع على أعمدة مرتفعة، وسقفه حديث التجديد، وبه منار متسع مرتفع قائم من الأرض على أعمدة

(*) لمعرفة المزيد عن ثورات الصقليين وانتفاضاتهم في سائر أنحاء جزيرة صقلية في وجه (خليل بن إسحاق)، انظر: تاريخ صقلية الإسلامية، د .عزيز أحمد، ص 34، العرب في صقلية، د .إحسان عباس، ص 43.

(29) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية حسن حسني عبد الوهاب، ط: 1، جمع وإشراف محمد العروس المطوى ـ القسم الثالث، تونس: الناشر مكتبة المنار، 1973، ص 443 ـ 444.

(30) تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات: ليبيا، تونس، صقلية، د .شوقي ضيف، ط: 1، مصر: دار المعارف، 1992، جـ 9، ص 85.

مستديرة... وكان بناؤه في العام المكمل للمائة الثالثة على يد خليل بن إسحاق»[31].

ويزيد التجاني فيذكر «أن خليل بن إسحاق ابتنى المنار الذي لجامع طرابلس الأعظم»[32]، وفي معرض حديثه عن مسجد يقع بين الباب الأخضر وباب البحر، وقريب من سور المدينة، يذكر أيضاً أن «مصلى البلد بجانبه بين جنوب وشرق منه، وهو محدث الوضع هنالك... بناه عبد اللّه بن أبي مسلم وخليل بن إسحاق»[33]. وكان موقع المصلى القديم في الجهة الغربية.

كما أشار الشيخ الطاهر الزاوي إلى هذه الأعمال بقوله إن «خليل هذا هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيديين وبنى منارته»[34].

وفي فترة ولايته على صقلية، ذكرت المصادر أنه «اختط مدينة (الخالصة) الحصينة، على مقربة من (بلرم) على غرار (المهدية) عاصمة الفاطميين، وقد أصبحت (الخالصة) مركز الإدارة، فيها: مقر الوالي والدواوين المدنية والعسكرية، وقد ضمت مخازن السلاح لحاضرة صقلية ودار الحكومة والسجن وكافة أجهزة الدولة في الجزيرة»[35].

أيامه الأخيرة في القيروان ووفاته بها:

يذكر ابن الأبّار أن (القائم) بعد أن صرف (خليل بن إسحاق) عن صقلية واستقدمه منها، «قدّمه لحرب أبي يزيد الخارجي، وأخرجه إلى مدينة القيروان

---

(31) رحلة التجاني، مرجع سابق، ص 253.

(32) المصدر نفسه، ص 254.

(33) نفسه، ص 246.

(34) أعلام ليبيا، مرجع سابق، ص 105، انظر أيضاً: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر الزاوي، ص 185.

(35) تاريخ صقلية الإسلامية، د .عزيز أحمد، ط: 1، ترجمة: د .أمين توفيق الطيبي، ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1980، ص 34.

في ألف فارس من وجوه العبيد، فأساء معاملتهم حتى أضغنهم ودبروا عليه»[36]. وأسباب هذه الحرب أن (القائم) كان «كغيره من الخلفاء الفاطميين ينقم على السنّيين، حتى إنه أمر بلعن الصحابة، وقد أثار ذلك غضب المغاربة، وخاصة الخوارج الذين ثاروا على الفاطميين، وكان أشد هذه الثورات خطراً، وأشدها بلاء، تلك الثورة التي أشعل نارها (أبو يزيد مخلد بن كيداد)»[37]، حوالي سنة 330هـ/ 942م(*). وامتثالاً لأوامر (القائم)، تحرك خليل بن إسحاق من (رقّادة) وكان عاملها(**)، إلى القيروان لإخماد ثورة أبي يزيد الذي استطاع أن يدخل القيروان ويتملكها، وأن يستولي على (رقادة).

ورغم الألف فارس الذين كانوا مع خليل بن إسحاق، لم يتمكن من أبي يزيد وثورته، لأنه ـ كما سبق القول ـ أساء معاملة هؤلاء الألف حتى أضغنهم، فلم ينصحوا في القتال معه، بل دبروا عليه وتآلبوا ضده، فكان أن قصده أبو يزيد ـ كما يقول ابن الأبّار «وحصره بداره إلى أن أخذه وأصحابه فاعتقلهم، ثم قتلهم جميعاً بباب أبي ربيع وأمر بهم فصلبوا»[38].

أما عن تاريخ وفاة خليل بن إسحاق وقتله وصلبه فإن التجاني يحدده لنا في رحلته، بقوله إن خليلاً قتله «أبو يزيد مخلد بن كيداد لما تملك (القيروان) سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة»(*)[39]. وأنه «لما قتله أمر بصلبه، فبادر إليه بعض

---

(36) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

(37) تاريخ الإسلام السياسي، د .حسن إبراهيم حسن، ط: 7، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1965، جـ 3، ص 146.

(*) انظر: تاريخ المغرب وحضارته، د .حسين مؤنس، ط : 1، بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع، 1992، جـ 1، ص 497.

(**)انظر: المصدر السابق، ص 498.

(38) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 302.

(39) رحلة التجاني، مرجع سابق، ص 253.

(*) يذكر د .محمد عبد المنعم خفاجي أن خليل بن إسحاق قتل عام 232هـ، نقلاً عن (أعلام ليبيا) للطاهر الزاوي الذي ذكر أن ذلك كان عام 332هـ (ص 105)، مما يبدو أنه خطأ مطبعي، فوجب التنبيه، انظر: قصة الأدب في ليبيا، مرجع سابق، ص 88.

القرويين، فجرد ثياب نفسه وشرع في ذلك، فنظر أصحاب أبي يزيد إلى آثار السياط، قد عمّت ظهر القروى، فسألوا عن ذلك، فذكر لهم بعض من حضر، أن كل عامل يتولى، يفعل ذلك به لدناءته وشره، فاعتوروه برماحهم وصلبوه إلى جانب خليل بن إسحاق»[40].

هكذا كانت نهاية خليل بن إسحاق... مات مقتولاً مصلوباً سنة 332هـ بالقيروان على يدي أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني لما استولى عليها وأخرج (القائم) وعامله وأنصاره منها.

* * *

خليل بن إسحاق الشاعر

قدّمت إلينا المصادر (خليل بن إسحاق) ـ أول ما قدمت من سيرة حياته ـ على أنه أحد أبناء جند مدينة طرابلس ـ مسقط رأسه ـ في أواخر أيام دولة الأغالبة، ثم عرفناه، أحد رجالات دولة العبيديين في السنة الأخيرة من القرن الثالث الهجري، وهو متولٍ تعذيب أهل طرابلس وآخذٍ لأموالهم. ثم عرفناه قائداً من كبار قواد جيوش هذه الدولة، ومسؤولاً عن جبايات الأموال ومحاسبة الدواوين، وغازياً مع (القائم) لمصر، ووالياً على جزيرة صقلية، فأداة لإخماد ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد في القيروان.

من خلال هذه الأحداث، ظهر اسم (خليل بن إسحاق) على صفحة التاريخ، وجاءت شهرته التي بها عرض المؤرخون بعض سيرته، وذكروه في أثناء تدوينهم لأخبار دولة العبيديين بإفريقية، ولكن هذا لم يمنع بعض القدامى منهم، من أن يشيروا إليه شاعراً كابن الأبار (595 ـ 658هـ) الذي أخبرنا في كتابه (الحلّة السّيراء) بأنه كان طالباً للعلم والأدب في مبدأ حياته، وأنشد له شيئاً من شعره. وقد نقلت عنه ذلك أغلب الكتب، وعوّل على ما أورده من شعره كل

(40) رحلة التجاني، مرجع سابق، ص 253 ـ 254.

من جاء بعده وتعرض لخليل بن إسحاق شاعراً، وبخاصة المحدثين(*).

والملاحظ أن الذين كانوا يتعاطون الأدب ويقرضون الشعر في ليبيا في العهد الفاطمي قلة قليلة، وهم الذين وصلتنا أسماؤهم، وذكر المؤرخون نُتفاً من سيرة حياتهم وشيئاً من أدبهم، وبعضاً من أشعارهم، لا يشكل ـ في مجمله ـ نشاطاً أدبياً أو حركة شعرية تلفت إليها أنظار الدارسين والباحثين.

وقد طرح د. أحمد مختار عمر عدة أسباب جعلت الشعر في ليبيا تحت حكم الفاطميين ومن بعدهم غير مزدهر «بنفس القدر الذي ازدهر به في أنحاء أخرى من العالم»[41]. من هذه الأسباب ـ في نظره ـ أن ليبيا لم تتمتع «في هذه الفترة باستقرار سياسي، ولم تتخذ في أي وقت من أوقاتها قاعدة للحكم، ولهذا لم تخرج هذه الحقبة عن كونها امتداداً لحكم الولاة الذين يعينون من خارج الحدود، ويدينون بالولاء لغيرهم، ولم يكن الولاة ـ من ناحية ـ، يتمتعون بنفوذ قوي، كما أنهم لم يستطيعوا ـ من ناحية أخرى ـ، أن يشعروا الناس بالطمأنينة والاستقرار تحت لوائهم»[42]، فضلاً عما شهدته منطقة المغرب العربي من شيع وأحزاب ودويلات استقلت ببعض أجزائها، إلى جانب «أن طبيعة الحياة في ليبيا لم تتح الفرصة لظهور شعراء وأدباء من الطراز الأول، وكان أكثر المتمرسين بالشعر، إما من فئات اللغويين، مثل ابن الأجدابي، وإما من الفقهاء، مثل ابن أبي الدنيا، وأبي علي بن معمر الهواري»[43].

وإذا كانت بعض المدن الليبية الصحراوية قد عرفت عدداً من الفقهاء والقراء والعلماء والأدباء والشعراء، مثل (ودان) المدينة النائية في جنوب البلاد،

(*) من هؤلاء د. إحسان عباس (تاريخ ليبيا ـ ص 225) ود. أحمد مختار عمر (النشاط الثقافي في ليبيا، ص 228 ـ 231) ود. شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي ـ جـ 9، ص 85 ـ 88).

(41) النشاط الثقافي في ليبيا، د. أحمد مختار عمر، ط: 1، بنغازي: منشورات الجامعة الليبية، 1971، ص 227.

(42) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(43) نفسه، ص 227.

التي يذكر عنها (البكري) أن أهلها «عندهم فقهاء وقراء وشعراء»[44]، فإن هذا الأمر لا ينسحب على الكثير من المدن الليبية، وإن يرى د .إحسان عباس أنه يكون أعم في مدن الساحل الليبي[45]، إذ لا يحدث هذا في كل الفترات. فمثلاً «لم تستطع طرابلس أيام بني خزرون أو بني مطروح أو بني ثابت، أن تكون ذات بلاط أدبي، لم تستطع أن تنعش الحياة الأدبية بمثل حماية المعز بن باديس في القيروان، أو المستنصر الحفصي في تونس، دع عنك ذكر قرطبة الأمويين وإشبيلية العباديين وحلب الحمدانيين، وقاهرة الفاطميين وبغداد العباسيين»[46].

ومرجع ذلك ـ في نظري ـ أن علماء طرابلس وفقهاءها وشعراءها لم يكونوا ينالون الشهرة التي كان يحظى بها غيرهم، إلا إذا كانت لهم رحلة في طلب العلم أو أتيحت لهم فرصة لقاء شيوخ وعلماء معروفين أثناء عبورهم الأراضي الليبية في رحلة أداء فريضة الحج أو عند ترحالهم ـ لأجل زيادة في التحصيل الديني والعلمي ـ من المغرب إلى المشرق أو العكس. فضلاً عن أن اهتمام من كانت له رحلة في طلب العلم من أبناء المدن الليبية، اقتصر، في الأغلب الأعم، على العلوم العربية والدينية كالفقه ورواية الحديث والتفسير واللغة من نحو وصرف وبلاغة. لقد كان هؤلاء يفضلون الاشتغال في مثل هذه العلوم. ومن ثم انصبت قراراتهم واطلاعاتهم على هذا الجانب دون غيره، فكان حظ الأدب عندهم، والشعر بخاصة، غير ذي بال وكان أهل الأدب والشعر بالتالي قلة قليلة. بل إن كثيراً من هؤلاء الأدباء والشعراء ـ كما يقول د .أحمد مختار عمر ـ «حين لم يجدوا التقدير والتشجيع في وطنهم، خرجوا إلى أرض الله الواسعة، واتصلوا ببلاطات أخرى للحكام ووصلوا أنفسهم بدواوينهم، وطاب لهم المقام معهم وتحت لوائهم»[47]. وبهذا كانت الشهرة للعلماء

---

(44) المسالك والممالك، أبو عبيدة البكري، ط: 1، حققه وقدم له وفهرسه: إدريان فان ليوفن وأندري فيري، ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1992، جـ 2، ص 659.

(45) تاريخ ليبيا، مصدر سابق، ص 105.

(46) المصدر نفسه، ص 224.

(47) النشاط الثقافي في ليبيا، مرجع سابق، ص 228.

والفقهاء والقراء بالدرجة الأولى، وهي أضيق بالنسبة للأدباء والشعراء، لأن هؤلاء لم يكونوا «يعرفون إلا إذا وصلوا أنفسهم ببلاط كبير، مثل بلاط صاحب القيروان أو صاحب مصر»[48].

وترتب على ذلك أن طرابلس لم تعرف ـ وقتئذ ـ نشاطاً أدبياً واسعاً أو حركة شعرية مزدهرة، وقد أشار د .شوقي ضيف إلى ذلك بقوله:

«ولم تحدث في ليبيا نهضة أدبية واسعة قبل عصرها الحديث، ومرجع ذلك ـ في رأينا ـ إلى أنه لم ينشأ بها دولة ترعى الأدب والأدباء، ولا نشأ بها ديوان إنشاء يحدث فيها حركة نثرية أدبية، ولا كان فيها رعاة للشعر، يجزلون العطاء للشعراء. [ومع ذلك] يلمع فيها بأخرة من القرن الثالث الهجري شاعر طرابلس يسمى خليل بن إسحاق»[49].

ولعل هذا ما يفسر لنا اهتمام المؤرخين القدامى والمحدثين بخليل بن إسحاق الشاعر، فقد اتصل ببلاط العبيديين في القيروان والمهدية، ذلك الاتصال الذي دام أكثر من ثلاثين عاماً. ورغم قلة القصائد التي وصلتنا من شعره، فإن د .محمد عبد المنعم خفاجي يجعله ضمن أشهر العلماء والأدباء الليبيين في العصر الفاطمي (296 ـ 361هـ/ 909 ـ 971م)[50].

شعره:

الجدير بالملاحظة هنا، أن نتاج هذا الشاعر وأمثاله من الشعراء السابقين عليه أو اللاحقين له(*)، لم يصلنا في ديوان مستقل أو ضمَّه كتاب بعينه، وإنما وصلنا نتف من أشعارهم في مصادر متفرقة، فضلاً عن أن ما وصل إلينا من سيرة حياتهم وترجماتهم، لا يتعدى «أخباراً وأسماء أو إشارات يتناقلها المؤلفون،

---

(48) تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 106.

(49) تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 7.

(50) قصة الأدب في ليبيا، مرجع سابق، ص 88.

(*) للوقوف على المزيد من أسماء هؤلاء الشعراء والأدباء، انظر: تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 112 ـ 113.

وتحويها بطون كتب الأدب، تؤكد وجود مادة أخرى كثيرة، ضاع بعضها وطمر بعضها الآخر داخل خزائن الكتب والمخطوطات»[51].

فما أنشده ابن الأبّار في كتابه (الحلّة السّيراء)[*] من شعر خليل بن إسحاق وانفرد به وعوّل عليه غيره ونقل عنه، جدّ قليل، لا يزيد ـ في مجموعه ـ على اثنين وعشرين بيتاً، تمثل ثلاث قصائد، جميعها في مدح حكام دولة العبيديين.

الأولى يبدو أنها طويلة ولكن ما أورده منها ابن الأبّار أربعة عشر بيتاً، وفيها يمدح (عبيد اللّه المهدي) مؤسس الدولة العبيدية، والثانية ذكر منها أربعة أبيات قالها خليل بن إسحاق في (القائم) ابن عبيد اللّه وولي عهده، والثالثة ذكر منها ابن الأبّار أربعة أبيات أيضاً، يبدو أنها آخر ما نظم، فقد قالها عند توديع (القائم) في خروجه إلى القيروان لمحاربة أبي يزيد بن كيداد وإخماد ثورته.

واللافت للنظر أن من جاء بعد ابن الأبّار ونقل عنه، لم يصنف جديداً من شعر خليل بن إسحاق، باستثناء الأستاذ محمد اليعلاوي، كما سيأتي بيانه:

فإبن عذارى يذكر من شعر خليل بيتين فقط من قصيدته الأولى التي يمدح فيها (عبيد اللّه المهدي) وتوغله فيه وهما:

إن الإمـام أقـام سـنّـة جـدّه للـمسـلـمين كـما حـذوت نـعـالـها
أحـيـا (شـرائـعـه) وقـوّم كـتـبـهـا وفـروضـهـا وحـرامـهـا وحـلالـهـا[52]

ويخطئ ابن عذارى في كلمة (شرائعه)، والصحيح (شرائعها) التي تعودإلى قول الخليل (سنّة جدّه).

وهذا د .أحمد مختار عمر يأتي بما أنشد، ابن الأبّار من شعر خليل بن إسحاق دون تغيير يذكر، سوى لفظة (يضيرك) التي وردت في البيت الأول من

(51) النشاط الثقافي في ليبيا، مرجع سابق، ص 177.
(*) جـ 1، ص 303 ـ 304.
(52) البيان المغرب، مرجع سابق، ص 215.

قصيدته الأولى، فجعلها (يضرّك)[53]. وكذلك فعل د .شوقي ضيف[54]. أما د .إحسان عباس فقد أبقاها كما جاءت عند ابن الأبّار، وإن أورد ثمانية أبيات من القصيدة الأولى: الأربعة الأولى من تسعة، وأربعة أبيات من الخمسة التالية، كما لم يذكر الأبيات الأربعة من القصيدة الثانية[55]. في حين أورد د .عبد اللطيف البرغوتي جميع ما أنشده ابن الأبّار من شعر خليل، دون تعليق، مكتفياً بالإشارة إلى أن خليل «كان يقول الشعر»[56]. وهو في ذلك ينقل عن د .إحسان عباس[57]، الذي كان بدوره ناقلاً عن ابن الأبّار.

أما د .صالح مصطفى مفتاح فقد أورد الخمسة الأبيات الأخيرة من القصيدة الأولى، ناقلاً في ذلك عن ابن الأبّار، وإن ذكر خطأً الكلمة الأخيرة من البيت الثاني (تعاليها)[58]، والصواب (نعالها) وربما كان هذا خطأً مطبعياً. في حين أن الشيخ الطاهر الزاوي لم يذكر له شيئاً من شعره في كتابيه (أعلام ليبيا) و(تاريخ الفتح العربي في ليبيا). وكذلك د .محمد عبد المنعم خفاجي الذي لم يستشهد هو الآخر بشيء من شعره، فيما قدّمه من صور ونماذج للشعر والشعراء في ليبيا في العهد الفاطمي، ولم يترجم له فيما ترجم لأشهر شعراء هذا القرن[59]، وإنْ عدّه من بين أشهر العلماء والأدباء، مكتفياً بالقول: إن «خليل بن إسحاق له حظٌّ في العلم وباع واسع في الأدب، قتل عام 332هـ»[60]، ناقلاً في ذلك عن (أعلام ليبيا ص 105) للشيخ الطاهر الزاوي.

---

(53) النشاط الثقافي في ليبيا، مرجع سابق، ص 225 ـ 231.

(54) تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 86.

(55) تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 226.

(56) تاريخ ليبيا الإسلامي، د .عبد اللطيف البرغوتي، ط: 1، بيروت: دار صادر، منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازي، 1393هـ [1973]، ص 322 ـ 323.

(57) ليبيا في كتب التاريخ والسير، د .إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، ط: 1، بيروت: مطابع دار صادر، منشورات الجامعة الليبية ـ بنغازي، 1968، ص 259 ـ 261.

(58) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، صالح مصطفى مفتاح، ط: 1، طرابلس: منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1978، ص 268 ـ 269.

(59) قصة الأدب في ليبيا، مرجع سابق، ص 93 ـ 117.

(60) المصدر نفسه، ص 87.

ولما كان الشاعر (خليل بن إسحاق) من الذين عمّروا طويلاً في ظل الدولة العبيدية الفاطمية، أكثر من اثنين وثلاثين عاماً، وعاصر خليفتين هما (عبيد اللّه المهدي وابنه أبو القاسم، من الأربعة الخلفاء الفاطميين الذين حكموا الشمال الإفريقي خلال خمس وستين سنة (296 ـ 391هـ)، فإن القدر الذي وصلنا من شعره قليل جدًّا، لا يعكس ذلك، ولا يمثل مكانته الشعرية التي أُشيد بها، وهو ما يدفع للاعتقاد بأن جزءاً كبيراً منه قد ضاع أو لم يكشف عنه بعد.

ولقد استطاع ـ أخيراً ـ الأستاذ محمد اليعلاوي، بما جمعه من شعر شعراء العهد الفاطمي، وضمّنه كتابه (الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي)، أن يقدم الجديد من شعر خليل بن إسحاق[61]، الذي لم يبق لأحد من المحدثين أن أورده في كتاب أو أشار إليه، وبالتالي أضاف ـ لأول مرة ـ شيئاً من شعره إلى ما سبق لابن الأبّار أن أنشده له. وقد مكنّه من ذلك، وقوفه على كتاب (عيون الأخبار) للداعي إدريس (المتوفى سنة 872هـ/ 1468م)، الذي ذكر لخليل بن إسحاق عدداً آخر من القصائد، بلغ مجموع أبياتها ثمانية وثلاثين بيتاً، تفصيلها على النحو التالي:

قصيدة طويلة من عشرين بيتاً، فقصيدة من ثمانية أبيات، وأخرى من أربعة أبيات، ورابعة مثلها، ثم بيتان من شعر الإخوانيات. وإذا ضممنا هذا العدد من الأبيات إلى ما أورده ابن الأبّار من شعر خليل، فإن المجموع يكون ستين بيتاً لثماني قصائد، ولعل الأيام تكشف عن المزيد من شعره.

وقراءة في مجموع هذا الشعر تفصح عن أن موضوعاته تدور في فلك الدولة العبيدية ومدح مؤسسها عبيد اللّه المهدي وابنه أبي القاسم (القائم)، وأن الذي قيل في أواخر أيامه، يتسم بالموعظة والاعتبار والحكمة، كقوله:

بان الشباب، فبن عن اللذات وتولَّ منصرفاً عن الشهوات
واهجر صواحبك الحسان اللائي في هجر المشايخ غير مختلفات

(61) الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، جمع وتحقيق: محمد اليعلاوي، ط: 1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1986، ص 104 ـ 114.

إن التصابي بالخرائد كالدمى لأُولي النّهىٰ والشيب غير مؤات
لله درّ فتى يروح ويغتدي حذراً من الآثام والشبهات[62]

وأيضاً قوله من قصيدة «متعددة الأغراض، بين غزل وفخر وإشادة بالأئمة الفاطميين، ولكن الصيغة الغالبة عليها هي الفخر بالأخلاق الفاضلة»:

ذهبت أكاليل الوسامة وأبيضّ مُسودُّ الغمامة
وجفاك من عذّبته وأطلت من شوق غرامه
والغانيات إذا رأيـ ـن الرأس أصبح كالثغامة
أعرضن إعراض الجمو ح إذا أبحت له لجامه
مَنْ ودّني فمودّتي وقفٌ عليه إلى القيامة
ومن انثنى عني دعو ت له المهيمن بالسلامة
لا أحمل الحقد المقيـ ـم على الصديق ولا الملامة
وإذا تعرض جاهل أو ظالم مني ظلامه
طوقتها عن قدرة في جيده طوق الحمامة[63]

أما بقية قصائده فهي تسجل مواقف وأحداثاً سياسية، وتشيد مدحاً بأصحاب الدولة العبيدية الفاطمية، منها هذه الأبيات التالية التي كتبها إلى (عبيد اللّه المهدي) حين منع عن الدخول إليه، يقول فيها:

حلفت، وإن قلت الذي ليس في قلبي فلا غفر الله المهيمن لي ذنبي
لأنت، أمير المؤمنين، على الظمأ أحبُّ إلى قلبي من البارد العذب
ووالله ما أدري إذا غبت ساعة وداداً وشوقاً، أين عقلي ولا لُبّي
لأنك يا خير البرية كلها إمامي الذي أرجو به الفوز من كربي
أتيت ببرهان من الله واضح وفسّرت ما استعمىٰ علينا من الكُتْبِ

(62) المصدر نفسه، ص 106.
(63) نفسه، ص 113.

فـأصـبـح ديـن الله بـعـد درُوسـه جديداً كـمـا أنبـا بـه جـدك الـمـنبي
وقـد سـعـد الأشـيـاخ مـنـك بـنـظـرة وفـازوا بـهـا دونـي فـأوجـعـني قـلـبـي
فـدمـت عـلـى الأيـام فـي كـل نـعـمـة ملكاً على أصل المشارق والغرب[64]

ويذكر صاحب (عيون الأخبار) أنه لما انتهت هذه الأبيات إلى (المهدي) أمر بدخوله من ساعته[65]. ومن شعره الذي يخاطب فيه (المهدي) أيضاً، ذاكراً له ما آلت إليه حال دواوينه من فساد واقتطاع كتابها الأموال، الأبيات التالية:

الله يـعـلـم يـا خـلـيـفـة ربـنـا وابـنُ الـخـلائـق، أنـنـي لـك نـاصـح
فإذا نـصـحـتك يـا ابـن بـنـت مـحـمـد فـالـحـظ لـي، وأنـا الـسـعـيـد الـرابـح
أضـحـت دواويـن الإمـام ونـقـصـهـا بـعـد الـزيـادة مـسـتـبـيـن واضـح
مـاذا أرى مـن بـعـد أن لـعـبـوا بـهـا وتعاقدوا في أخذها وتصالحوا[66]؟

وتعليقاً على هذه الأبيات يأسف الأستاذ اليعلاوي لقصرها، وتمنى لو أدرجها صاحب (عيون الأخبار) كاملة «لعلمنا مزيداً من التفاصيل عن سياسة الفاطميين المالية»[67].

ومن شعره أيضاً في مديح (المهدي)، قصيدة ذكر منها ابن الأبّار أربعة عشر بيتاً، ويبدو أن هذه الأبيات ما هي إلا جزء من قصيدة طويلة، كما يفهم من قول ابن الأبّار (ومنها)[68]. ويذهب د. شوقي ضيف، معللاً عدد ما وصلنا من أبيات من هذه القصيدة، إلى أن ابن الأبّار لم يسق «مديح القصيدة تامّاً، ولعله صنع ذلك لما في بقية القصيدة من مبالغات شديدة الإفراط في تصوير قدسية (المهدي)، وحَسَناً صنع»[69].

---

(64) نفسه، ص 104 ـ 105.
(65) نقلاً عن: الأدب بإفريقية، ص 105.
(66) المصدر نفسه، ص 107.
(67) نفسه، هامش ص 107.
(68) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 303.
(69) تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 87.

ويذكر ابن الأبّار أن خليل ابن إسحاق نظم قصيدته هذه، معارضاً بها قصيدة (مروان بن أبي حفصة)(*)، في المهدي العباسي التي مطلعها:

طرقتك زائرة، فحيّ خيالها بيضاءُ تخلط بالجمال دلالها
قادت فؤادك فاستقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

يقول خليل:

قف بالمنازل واسألَنْ أطلالها ماذا يضرُّك إن أردت سؤالها؟
هل أنت أول من بكى في دمنة درست وغيّرت الحوادث حالها
يا دار زينب هل تردّين البكا عن مقلة سفحت عليك سجالها؟

إلى أن يقول، مادحاً عبيد الله المهدي:

صلى الإلٰه على النبي محمد وعلى الإمام وزاده أمثالها
إن الإمام أقام سنة جده للمسلمين كما حذوت نعالها
أحيا شرائعها وقوّم كتبها وفروضها وحرامها وحلالها
وهدى به الله البرية بعدما طلب الغواةُ الظالمون ضلالها
إن الخلافة يا ابن بنت محمد حطت إليك عن النبي رحالها(70)

من الواضح اتفاق قصيدة خليل بن إسحاق مع قصيدة مروان بن أبي حفصة في أسلوب المعالجة، والأبعاد الشعورية التي تكمن وراء تجربتهما الشعرية التي يعد تفهمها خطوة أساسية في استكشاف جوانب هذه المعارضة. فإلى جانب تشابه الموضوع والفكرة من ناحية، حيث صاغ كلاهما قصيدتهما في مديح خليفة حاكم، فإن هناك تقارباً آخر يتمثل في أسلوب الصياغة على المستوى الشكلي، واتحاد الوزن العروضي وحرف الروي بين القصيدتين من ناحية أخرى، فضلاً عن أن خليل بن إسحاق بدأ قصيدته بالتشبيب وبكاء

(*) ولد سنة 105هـ ومات سنة إحدى وثمانين أو اثنتين وثمانين ومائة ببغداد، انظر، (وفيات الأعيان لابن خلكان، جـ 2، ص 526.

(70) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 303، الأدب بإفريقية، ص 111.

الأطلال على شاكلة ما فعل مروان بن أبي حفصة، ثم مجّد (عبيد اللّه المهدي) مؤسس الدولة العبيدية الفاطمية وتغنى بأعماله، مردداً عقائد هذه الدولة، مدافعاً عنها.

ويبدو أن هذه القصيدة قد ذاعت وطار صيتها بين رعايا الدولة العبيدية، إذ ذكّر بها في ظروف «كانت قاسية مؤلمة مؤثرة، فقد كان يساق إلى القتل، فاعترضه بعض سفهاء (القيروان) فشتمه وأنشده... البيتين الأولين، مستهزئاً به، ناعياً عليه جاهه وسلطانه، وشامتاً بإدبار الدنيا عنه، فتشجع عندئذ خليل واستقبل الموت بأريحية وشجاعة لم تظن فيه»[71].

والملاحظ أن أغلب من تناول شعره بالشرح والتحليل، استحسن هذه القصيدة وأصدر بحقها جملة من الأحكام النقدية التي تمس شاعريته وتجربته الشعرية. فهذا د. شوقي ضيف يقول عن أبياتها: إنها «تسيل عذوبة، إذ عرف خليل بن إسحاق كيف يصطفي لها الألفاظ، وكيف يلائم بين جرسها مع حلاوة الصوت، ومع تشابك الكلمات في كل بيت، وكأن كل كلمة لَبَّتْ قرينتها واستجابت لصاحبتها وجارتها. وحقاً، الصور في الأبيات ألم بها الشعراء أو طالما ألم بها الشعراء قبله، غير أنه أعاد عرضها عرضاً يستهويك بصياغته، وما يبث فيه من الجناسات والطباقات»[72]. واعتبرها د. أحمد مختار عمر من جيد شعره «مع ما اتصف به خليل بن إسحاق من قوة وفظاظة وسفك دماء»[73].

أما الأستاذ محمد اليعلاوي فيرىٰ «أن هذا الشعر ـ والقسم الأول منه بالخصوص ـ أحسن صياغة وأكثر شاعرية... ولعل جودة هذا النسيب ناتجة عن محاكاة مروان بن أبي حفصة»[74].

---

(71) عيون الأخبار، الداعي إدريس، ص 290، نقلاً عن: الأدب بإفريقية ص 112.

(72) تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 86.

(73) النشاط الثقافي في ليبيا، مرجع سابق، ص 229.

(74) الأدب بإفريقية، ص 112.

وفي ضوء هذه القصيدة يقول د .إحسان عباس «وشعر خليل من الشعر الذي يتميز بالجزالة والقدرة على التصرف، ولكن ما وصلنا من شعره، إنما يمثل جانب المدائح. ويبدو أن انصرافه إلى خدمة القضية العبيدية جعله يقف أكثر شعره على مدح المهدي وابنه القائم»[75].

وتأكيداً لهذا القول، فإن من بين ما وصلنا من شعر خليل بن إسحاق مقطوعتين في (القائم)، الأولى أنشدها حين فصده الطبيب وأخرج مقداراً من دم كفه للعلاج، وفيها يدعو هذا الطبيب أن يتلطف به، وهو يفعل ذلك، حيث يقول[76]:

قل للطبيب الذي أوصى ليفصده رفقاً، ولا زلت بالإسعاد ترتفق
كيف استطعت ترى بالله طلعته ومن سنا نوره ما يشرق الأفق؟
إني لأعجب من كف مسست بها خير الورى كيف لم ينبت بها الورق؟

أما قصيدته الثانية في (القائم) فهي التي نظمها يوم خروجه في ألف فارس من المهدية إلى القيروان، حين أمره أن يحارب أبا يزيد بن كيداد، قال مودعاً (القائم):

وما ودّعت خير الناس طرًّا ولا فارقته عن طيب نفسي
وكيف تطيب نفسي عن حياتي أفارقها وعن قمري وشمسي
ولكني طلبت رضاه جهدي وعفوَ الله يوم حلول رمسي
فعاش مملّكاً ما لاح شمسٌ على الثقلين من جن وإنس[77]

يرى د. أحمد مختار عمر أنه «رغم إعجابنا بخيال الشاعر في هذه الأبيات، فإننا نأخذ عليه إغراقه في المبالغة وخروجه عن الحد المعقول»[78].

---

(75) تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 226.
(76) الحلة السيراء، مرجع سابق، ص 303 ـ 304/ الأدب بإفريقية، ص 110.
(77) المصدران نفسهما، ص 304/ ص 109.
(78) النشاط الثقافي في ليبيا، مرجع سابق، ص 230.

وينضم إلى هذا الرأي د .شوقي ضيف الذي يشير، هو الآخر، إلى ما في قصائده من مبالغات شائنة، سواء التي أنشدها في (المهدي) أو في ابنه (القائم)، فقد صنع فيها ـ كما يقول ـ مبالغات شديدة الإفراط في تصوير قدسيتهما، موضحاً جملة من هذه المبالغات، شارحاً لها من خلال ما جاء في أبياتها[79].

ويعلل الأستاذ محمد اليعلاوي هذا الإغراق في المبالغة بقوله: «يظهر من هذه المقطوعة ـ كما يظهر من المقطوعة الأولى ـ أن خليل بن إسحاق كان شاعر بلاط أيضاً يحسن التزلف إلى الخلفاء، ولعل ذلك التملق، هو الذي شفع له عندهم، فغضوا الطرف عن قساوته وسوء تصرفه في صقلية، واستبقوه في خدمتهم»[80]. ويخالف د .إحسان عباس هؤلاء حيث لا يرى «في شعره تلك المغالاة التي جرى عليها الشعراء العبيديون»[81]. وهو رأي ـ في نظري ـ لا تؤيده قصائد خليل التي عرضناها.

ولعل أطرف ما نختم به حديثنا عن خليل بن إسحاق الشاعر، بيتان يندرجان في أدب المساجلات والمطارحات، وهما نموذج مبكر من شعر الإخوانيات بينه وبين الداروني التميمي النحوي (ت 343هـ)[*] فقد طلب الداروني هذا من خليل، وكان عاملاً على ديوان الخراج أو النفقات، أن يرفع الجباية عن ثلاثة من أصحابه، فتمنّع خليل وأجابه بشطر بيت، فأرسل إليه الداروني ببيتين يقول فيهما:

اقض حاجاتي ودعني من قوافيك المليحة

إنما يحمد حسن الفعل لا حسن القريحة

---

(79) تاريخ الأدب العربي، مرجع سابق، ص 87 ـ 88.

(80) الأدب بإفريقية، ص 110.

(81) تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 226.

(*) ذكره محمد بن الحسن الزبيدي في كتابه (طبقات النحويين واللغويين) الترجمة رقم 188، ص 248، نقلاً عن الأدب بإفريقية، هامش ص 108.

فأجابه خليل على الفور بالبيتين التاليين وقضى حاجته:

من تعاطاك فقد عرض بالنفس الفضيحة

أنت أول رجل جادت له النفس الشحيحة[82]

ويستشف الأستاذ محمد اليعلاوي من هذين البيتين أنهما يدعمان قول ابن عذارى بتوليه «جبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال» وقد سبقت الإشارة إليه.

ذلكم شعر خليل بن إسحاق الذي وصلنا، عرضنا شيئاً منه في إطاره التاريخي، وأشرنا إلى مواقف النقاد منه، ورصدنا ما أصدروه بشأنه من أحكام نقدية تبقى مقبولة لدينا في ضوء ما بين أيدينا من قصائد، ولكنها أيضاً ناقصة وقلقة وغير قطعية، لا يطمئن إليها النقد الموضوعي تماماً، فقد يتم اكتشاف المزيد من شعره. فضلاً عن أن درس هذا الشعر، في دائرة الشعر الذي قيل في ظل حكم الفاطميين، يؤكد مكانة الشاعر خليل بن إسحاق بين شعراء العهد الفاطمي في ليبيا، بل يعده من أبرزهم، أو كما يقول د .إحسان عباس في هذا الشأن: إن «في قوة بيان هذا الشعر، ما يجعل خليل بن إسحاق مقدماً فيمن نعرفهم من الشعراء الليبيين»[83].

وذلكم هو الشاعر الطرابلسي (خليل بن إسحاق) من شعراء القرن الرابع الهجري، الذي جمع بين الشعر والسياسة، وحقق فيهما معادلة صعبة: كان فظًا غليظ القلب في السياسة، رقيق الجانب عذب اللفظ في الشعر.

---

(82) الأدب بإفريقية، ص 108.

(83) تاريخ ليبيا، مرجع سابق، ص 227.